الخطاب الجغرافي وقضايا التاريخ الاقتصادي في المغرب الأوسط.
قراءة في نصوص ابن حوقل

Geographicaldiscourse and economichistory issues in the Middel Maghreb
Through the texts of ibn Huqal.

سجية بوساق*، جامعة عبد الحميد مهري قسنطينة 2 (الجزائر)

bsadjya@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2021 /05/18 تاريخ القبول: 2021 /06/21 تاريخ النشر: 2021 /06/30

ملخص:

إن البحث في موضوع " الخطاب الجغرافي وقضايا التاريخ الاقتصادي من خلال كتاب صورة الأرض لابن حوقل". يكتسي أهمية بالغة، على الصعيد المنهجي والتاريخي. فرغم أن هذه النصوص نصوص جغرافية؛ إلا أنها تختزن معلومات نادرة. تكشف مدى حمولة النص المعرفية واختزانه لجوانب مهمة وانفتاحه على معارف متنوعة.

وتسعى هذه الدراسة إلى إبراز بعض الجوانب الاقتصادية المهمة والتي ينطوي عليها النص الجغرافي، ولئن حُصر موضوع المقال زمنيا بالقرن الرابع الهجري، ومكانيا بالمغرب الأوسط، فهو وقوف على مرحلة تاريخية مهمة. عرف خلالها النص الجغرافي لابن حوقل -على غرار المصنفات الأخرى- تطورات، وامتازت الكتابة بمناحي مختلفة. طبعتها كتابات جغرافيي القرن الرابع الهجري والتي كانت الأكثر عمقا وشمولا.

كلمات مفتاحية: المغرب الأوسط.، ابن حوقل.، صورة الأرض.، التجارة.، المدينة

*- المؤلف المرسل

Abstract:
The research on the subject of geographicaldiscourse and issues of economichistorythrough the book the"sourat al ardh". by ibn huqal .
The topicis of great importance at the methodoogical and historicallevelalthourgh the texts are geographical, they have rare information. The geographicaltextis open to a lot of diverse knowledge.
The factthat the subject of the article islimited in the 4th centuryAH is a possipility in the Middle Maghreb regionaimedathighlghting an important historical stage. Throughit , the geographicaltext has learnedmanydevlopments.
Geographicalwritingwasdeep and comprehensive.
Keywords: Ibn Huqal; the Middel Maghreb; city; trade; economy

- **مقدمة**

إن الموضوع المقترح يبحث في أهمية النص الجغرافي وما يختزنه من معارف، يتجاذب أطرافها الواقع الجغرافي المكتوب عنه وعنصري المكان والزمان . كل هذا يحتم على الجغرافي أسلوب كتابة معين. خاصة وأنه يستند إلى الوصف انطلاقا مما عاينه، أو السرد مراعاة لما سمعه ورُوي له.

وأثبتت نصوص ابن حوقل المقتبسة من خلال صورة الأرض في صياغتها قدرة اللغة العربية على تصوير أوجه النشاط الإنساني وكفاءتها في رسم الواقع بكافة تجلياته

وإذا اعتبرنا علم الجغرافيا أحد فروع المعرفة التي عرفت ازدهارا على يد الجغرافيين والرحالة العرب المسلمين في المشرق والمغرب الإسلامي. فقد كان القرن الرابع الهجري مرحلة مهمة في تطور النص الجغرافي وانفتاحه. وقد نحوت من خلال هذا البحث إلى رصد بعض النصوص المتعلقة برقعة جغرافية محددة وهي المغرب الأوسط- الجزائر حاليا، وسعيت إلى توظيف تلك الاقتباسات المصدرية وفق ما تتطلبه خطة هذا البحث التي تمفصلت وفق ثلاث مستويات:

المستوى المعجمي والاصطلاحي

المستوى المكاني والزماني.

المستوى الاقتصادي.

ومعالجة هذه المستويات أثار إشكالا مهما يتعلق بما يلي:

هل بإمكان النصوص الجغرافية لمؤلف ابن حوقل " صورة الأرض" أن تزودنا بمعطيات اقتصادية تغطي الفترة التاريخية التي كتبت عنها؟

1. حول صورة الأرض..:

تشهد مصنفات علم الجغرافيا المؤلفة في القرن الرابع الهجري، على ظهور مدرسة ساهم أعلامها -من أمثال الإصطخري وابن حوقل والمقدسي- في تطور الفكر الجغرافي.

ولعل ابن حوقل ومن خلال كتابه صورة الأرض، يمثل أنموذجا للتطور الجغرافي الإسلامي المبني على تراكمات سابقة وإنجازات لاحقة.

وذكر ابن حوقل أهم ما حفزه على تأليف صورة الأرض فقال:" لم أقرأ في المسالك كتابا مقنعا، وما رأيت رسما متبعا، فدعاني ذلك إلى تأليف ذلك الكتاب"[1].

ولا يجب أن نغفل ملاحظة جديرة بالاهتمام، وهي أن ابن حوقل واحد من أولئك الرحالة المثقفين الذين اتخذوا التجارة والرحلة وسيلة لفهم خصائص البلدان وطبائع الشعوب.[2]

ومكنت الجولات التي قام بها ابن حوقل (367هـ/978م)، والتي جمعت بين السياحة والتجارة من وصف مظاهر الأرض والأرياف والمدن، مرورا إلى نظام الضرائب، ومعايش السكان وطبائعهم، وهي طريقة لا تختلف عما دونه الرحالة. فهم يجمعون بين الرغبة في الاستكشاف والجرد الإنثوغرافي[3]. أتاح هذا المنهج الجامع لصاحب كتاب صورة الأرض، الجمع بين المعاينة والاستقصاء، من المزاوجة بين الجغرافية الطبيعية والبشرية والجغرافية الاقتصادية[4].

2. المستوى المعجمي والاصطلاحي:

استند الكتاب العرب إلى كتب الرحلة، للدلالة على كتابات الجغرافيين والرحالة العرب، وذكروا بالتالي مادة غنية بالعناصر الأدبية، تجمع بين الوصف والكشف والانطباع الشخصي[5]. مع روح المغامرة وذكر العجيب والغريب.

---

[1] ابن حوقل، صورة الأرض، دار مكتبة الحياة، بيروت، (د.ت). ص10.

[2] نفسه، ص10.

[3] محمد حبيدة، النص الإثنولوجي الوسيط الخبر الجغرافي أنموذجا، أشغال الملتقى الدولي السادس حول الكتابة التاريخية في العالم العربي الإسلامي، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة تونس. 2010.ص413

[4] لطفي دبيش، الإنسان والمكان في الثقافة العربية الإسلامية قراءة في نصوص الجغرافيين والرحاليين والمسالكيين العرب إلى القرن الخامس الهجري، منشورات كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة تونس، ، 2011 ص 412.ص413)

[5] نفسه ، ص415.

فلم يقتصر ابن حوقل،في النصوص الجغرافية المبثوثة في مصنفه صورة الأرض؛على: " إبانة كل بلد". وإنما تجاوزه بذكر " الجميل من كل مشهد".[1]

كل تلك الملامح المذكورة في مصفه تكتسي صيغة أدبية، من حيث سياق الحكي والسرد، والاستعمالات اللفظية والبناءات التعبيرية[2].). إذ حرص على الاهتمام بالمباني والمعاني. وقد اصطبغ النص الجغرافي خلال القرن الرابع الهجري، بصبغة فنية متفاعلة مع إنتاج العصر ذاته، ومع مفهوم البلاغة العامة، فنحت منحى أكثر أدبية وأقل جفافا[3]. كما نلحظ في قوله :"أما الأسعار فعلى تنائي مدنهم وديارهم، فعلى غاية الرخص في الأطعمة والأغذية، والأشربة واللحمان والأدهان"[4].

يحدد ابن حوقل موقع المدينة أو القرية أو التجمع العمراني مستندا إلى صفاته الطبيعية (جبل –نهر- صحراء... وظروف العيش فيه وأنشطة السكان. وأحوالهم الاقتصادية فيقول عن سكان مدينة طبنة الواقعة ضمن إقليم الزاب والأوراس:" فأكثر غلاتهم السقي ويزرعون الكتان وجميع الحبوب فيها غزيرة كثيرة"[5]. والملاحظ أن مصطلحات الجغرافية الطبيعية يوردها في سياق الحديث عن العناصر الحيوية المرتبطة بحياة الإنسان، ونمط معيشته. وممارسته الحرفية. فابن حوقل يتطرق لذكر مدينة ما، أو قرية بتصوير شامل، بذكره لمواردها الطبيعية، ونمط معيشة سكانها وإنتاجهم . فوصف مدينة المسيلة -المحمدية في العصر الإسلامي الوسيط –ببيان موقعها وانعكاس ذلك الموقع عليها ".. لها واد يقال له واد سهر فيه ماء عظيم منبسط على وجه الأرض، وليس بالعميق، ولهم عليه كروم وأجنة كثيرة، تزيد على كفايتهم وحاجتهم؛ ولهم من السفرجل المعنق ما يحمل منه إلى القيروان .. ومن غلاتهم القطن والحنطة والشعير، وتكثر عندهم المواشي من الدواب والأنعام والبقر ، وعليها من البربر بنو برزال وبنو زنداج وهوارة ومزاتة.." [6]. وهي صفة غالبة على كل مدن المغرب الأوسط على غرار مدينة نقاوس إذ كانت: "مدينة كبيرة بها مياه كثيرة وأجنة عظيمة وبها جميع الفواكه كاللوز والجوز والكروم وزرعهم غزير كثير"[7].

ومع غزارة الوصف فإنه لم يورد الطبيعة بصفتها عنصرا من عناصر الجمال بل اقترن ذكرها بمناحي نفعية.ويمكن القول؛ أن النص يحيل بنسيجه الاصطلاحي على الواقع، ويجعل المتلقي يفهم

[1] ابن حوقل، مصدر سابق، ص5.

[2] محمد حبيدة، مرجع سابق، ص413.

[3] لطفي دبيش، مرجع سابق، ص 412.

[4] ابن حوقل، مصدر سابق، ص95.

[5] نفسه، ص85.

[6] نفسه، ص85، ص86، 89.

[7] نفسه، ص11.

مختلف الأبعاد الجغرافية الكامنة في المصطلحات الواردة[1]. وهي أبعاد متنوعة ذات دلالات اقتصادية أو اجتماعية..

وقد وقفنا على مصطلحات أردفها ابن حوقل بالتفسير والتدقيق كمصطلحي ..القرية المدينة.. الكورة وهي كمصطلحات جغرافية إدارية تعكس قدرة اللغة العربية على الاستيعاب والإلمام بالأقسام الإدارية وضبط الفوارق بين المفاهيم بشكل دقيق.

ومن خلال المعجم الاقتصادي في نصوص صورة الأرض تضمن ضبط المقادير وتحديدها من قبيل؛ المصطلحات الضريبية :" كالخراج والجوالي والصدقات والأعشار ومراصد على المتاجر الداخلة إليها والخارجة والصادرة والواردة"[2].

وبهذا شقت اللغة العربية طريقا متصلا بإبلاغ المعارف المختصة، وعدم الاقتصار على الصيغ المألوفة أو المبتذلة [3].

والنص الجغرافي لا يمكن أن ننظر إليه باعتباره مادة لغوية، ونسيجا يحتفي بالمظهر بل خطابا متفاعلا مع أنظمة المجتمع، والتفكير في مجالات زمانية ومكانية محددة[4].

وتحمل نصوصه أيضا ما يوحي باعتماده على جغرافية بشرية، تستند إلى تقصي الحقائق ومعاينة جزئيات الظواهر والمظاهر[5].حيث عرج على ذكر خصالهم الخلقية، فوصفهم بقوله: " وأكثر بربر المغرب من نواحي تاهرت إلى تنس والمسيلة وبسكرة وطبنة وباغاي .. ونواحي بونة إلى مدينة قسطنطينة الهواء وكتامة ميلة وسطيف، يضيفون المارة ويطعمون الطعام .."[6].

ووصف أحد مسالك التجارة الرابطة بين المسيلة ومدينة فاس في المغرب الأقصى قوله:" وقد أتيت بهذا الطريق مقلوبا لأني سلكته من المغرب إلى إفريقية".."[7].

لقد أثبتت لنا بنية النص الجغرافي أننا إزاء نص جلي تركيبا وعبارة، تماهت فيها قدرة الجغرافي على تقديم المعاني على حقيقتها، كما يراها ويعاينها فمن المشاهد التي عاينها قوله :" وقد رأيت

[1] لطفي دبيش، مرجع سابق، ص281.
[2] ابن حوقل، مصدر سابق، ص78.
[3] لطفي دبيش، مرجع سابق، ص284.
[4] نفسه، ص218.
[5] نفسه ، ص284.
[6] ابن حوقل، مصدر سابق، ص94.
[7] نفسه، ص89.

بأودغشت صكا فيه ذكر حق لبعضهم على رجل من تجار أوذغست، وهو من أهل سجلماسة باثنين وأربعين ألف دينار.."[1] .

فهو من الرحالة الذين جابوا الأقاليم الإسلامية، وقد ذكر مدونا ذلك :" وقد ذكرت في آخر كتابي هذا كيف تعاورتني الأسفار وقطعتني في البر دون ركوب البحر إلى أن سلكت وجه الأرض بأجمعه في طولها وقطعت وتر الشمس على ظهرها.." .."[2].

ومما رواه من مسموعياته قوله : "وسمعت أبا إسحاق إبراهيم ..".."[3].وقوله: "وسمعت أبا علي بن أبي سعيد يقول .." .."[4]. وأيضا " سمعت أبا الحسن عن أبي علي الداعي المعروف بحمدان قرمط .."[5].

وفي مقاطع كثيرة من الكتاب ترقى عمليات الوصف إلى نوع من الجماليات التصويرية، أين يطغى عليها الطابع السردي[6] .فجمع بين السرد القصصي والعرض لجغرافي وهو ما يمنح أسلوبه صفة الذاتية والموضوعية [7].

3.المكان والزمان في النص الجغرافي:

كلما كان الإحساس بالمكان بينّا اتضحت الرؤية الجغرافية. وجاءت شاملة لمختلف عناصر المكان المادية والبشرية، فوعي الجغرافيين العرب بصفة عامة، وابن حوقل بشكل خاص بالمكان، جعلهم ينزلون بالبحث الجغرافي،من المجال الفلكي الرياضي إلى المجال المحسوس[8].

فلايهدف ابن حوقل إلى ذكر الطرق الرئيسية والفرعية، ووصف المسالك، التي يتعدى فيها حدود الذكر ليصف بعض معالم الطرق .والمخاطر التي تحف بها، محاولا تقديم تعليل لتلك الظواهر. والمواقع من أودية وأنهار وعيون، والتفصيل بين المدينة والبادية، ونعتها بعضها بالقديمة والأزلية والبعض بالكبيرة والصغيرة والمتوسطة. وجرده للقبائل البربرية، ومن نوادر ابن حوقل والتي انفرد بها أنه ذكر ما يقرب من مئتي قبيلة من قبائل البربر[9].

---

[1] نفسه، ص96.

[2] نفسه، ص11.

[3] نفسه، ص97.

[4] نفسه، ص93.

[5] نفسه، ص94.

[6] محمد حبيدة، مرجع سابق، 413.

[7] لطفي دبيش، مرجع سابق، 289.

[8] نفسه، 344.

[9] سعد عبود عمار، ابن حوقل دراسة تاريخية في كتابه صورة الأرض، دار تمور للنشر، 2016. ص67.

بقدر أن غايته تتمثل في تقصي أبعادها، وبيان أنواعها بغية إفادة الناس[1]. فالجغرافية " باب لا بد منه للمسافرين والتجار ولا غنى عنه للصالحين والأخيار، إذ هو علم ترغب فيه الملوك والكبراء وتطلبه القضاة والفقهاء وتحبه العامة والرؤساء، ويحظى به كل تاجر"[2].

يقول ابن حوقل متحدثا عن كتابه " وقد عملت كتابي هذا بصفة أشكال الأرض ومقدارها في الطول والعرض وأقاليم البلدان ومحل العامر منها والعمران من جميع بلاد الإسلام بتفصيل مدنها ... وقد جعلت لكل قطعة أفردتها تصويرا، وشكلا يحكي موضع ذلك الإقليم. ثم ذكرت ما يحيط به من الأماكن والبقاع، وما في أضعافها من المدن والأصقاع ... وما فيها من الأنهار والبحار وما يحتاج إلى معرفته من جوامع ما يشتمل إليه ذلك الإقليم من وجوه الأموال والجبايات والأعشار والخراجات والمسافات في الطرقات وما فيها من المجالب والتجارات. إذ ذلك علم يتفرد به الملوك والساسة وأهل المروءات والسادة من جميع الطبقات"[3].ومن خلال نص ابن حوقل يتضح أن الجغرافيين لم يهملوا الإطار المادي المتعلق بالمكان، وعناصر الطبيعة والواقع البشري[4].

الميزة النادرة هي أن كتب الجغرافية تجمع بين المكان والزمان، حيث ينتقل المؤلف من الصورة المكانية إلى الصورة الزمانية في مشهد موحد[5].

ومن جهة أخرى تنتقل كتب الجغرافية في مقاطع كثيرة من المكان إلى الزمان ، فتتحول الجغرافيا إلى استقصاء لتاريخ المكان وتاريخ الاقتصاد[6]. ومن النصوص التي رصدناها من صورة الأرض والتي تماهى فيها الزمان والمكان بشكل جلي، مردف بتحليل عميق من صاحب المصنف ما ذكره عن مدينة تاهرت :" وقد تغيرت تاهرت عما كانت عليه، وأهلها وجميع من قاربها من البربر في وقتنا هذا، فقراء بتواتر الفتن عليهم ودوام القحط وكثرة القتل والموت.."[7].وتظهر حنكته جلية، في هذا النص الذي جمع بين المعلومة الجغرافية ممثلة في الجفاف والقحط الذي عرفته مدن المغرب الأوسط، والتفسير الاقتصادي والاجتماعي للحدث التاريخي، وربط ذلك ببعض المتغيرات السياسية .

---

[1] لطفي دبيش، مرجع سابق، ص344.

[2] المقدسي، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، مكتبة مدبولي، القاهرة، 1991، ص20.

[3] ابن حوقل، مصدر سابق، ص10.

[4] لطفي دبيش، مرجع سابق، ص35.

[5] محمد حبيدة، مرجع سابق، ص414.

[6] محمد حبيدة، مرجع سابق، ص413.

[7] ابن حوقل، ص93.

وصف المستشرق آدم ميتز أهمية ما كتبه ابن حوقل؛ من حيث بلوغه الذروة في وصفه البلدان، حيث أنه سافر حتى دوخ الأقاليم، وحمله تيار الأسفار، واستهوته حياة الارتحال والسياحة على طريقة المسلمين"[1]. نرى ابن حوقل حريصا في بناء خطابه على عنصري الزمان والمكان، من قبيل قوله عن الداعي الإسماعيلي المعروف بحمدان قرمط :" .. وهو صاحب بيت مال أهل المغرب يقول في سنة ست وثلاثين وثلاثمائة، دخل المغرب ..."[2]. ومن المناصب الإدارية التي ذكرها منصب صاحب ديوان المغرب وصاحب بيت مال أهل المغرب، ومنصب صاحب الخراج بإفريقية وجميع المغرب، وربط بين هذه المناصب والشخصية التي تقلدتها إبان زيارته للمغرب سنة 360هـ/970م، وهو زيادة الله أبي نصر بن عبد الله بن القديم[3].

وهو بهذا يرمي إلى تأصيل الأخبار والروايات في إطار تاريخي، ويسعى إلى إقناع القارئ مؤكدا واقعيتها[4].تمتعت نصوص ابن حوقل بمعلومات على درجة كبيرة من العلمية يمكن الركون إليها، وهذا المنهج يمثل درجة عالية في البحث المبني على التحقيق والمشاهدة لما وصفه[5]. ويرفض ابن حوقل بعض الأخبار لأنه يعتبرها من الخرافات. ومثال ذلك ما ذكره عن جبل دنباوند بإقليم الجبال :" ومن الجبال المذكورة بهذه النواحي، جبل دنباوند مرتفع حتى يرى فيما بلغني من خمسين فرسخا لارتفاعه. وما بلغني أن أحدا ارتقاه. ويُتحدث عه بخرافات كثيرة من أمر السحر وأن السحرة من جميع أقطار الأرض تأوي إليه"[6]. وارتباط المبحث الجغرافي بالمكان والزمان أكسب الجغرافية صفة العلمية، وجعلها تستند في منهجها إلى معاينة الظواهر الحالّة بالمكان[7].

ولا شك أن اتصال الوصف الجغرافي بالمحطات التاريخية يجعل الخطاب الجغرافي يلتحق بالمعرفة العلمية الموثقة. وهذا لا يتعارض كونها صيغة من صيغ الإنتاج الفكري[8]. ولا ضرورة لمناقشة التداخل والتقاطع والتكامل بين العلميين اللذين يهتم أولهما بالمكان والثاني بالزمان وفي ذات يحتفظ كل منهما باستقلاليته.

3. المستوى الاقتصادي

---

[1] آدم متز، الحضارة العربية الإسلامية في القرن الرابع الهجري ، ترجمة، محمد عبد الهادي أبو ريد، دار الكتاب العربي، لبنان، ط5، مج 2، ص10.

[2] ابن حوقل، مصدر سابق، ص64.

[3] نفسه، ص، 94. سعد عبود عمار، مرجع سابق، ص104.

[4] لطفي دبيش، مرجع سابق، ص291.

[5] سعد عبود عمار، مرجع سابق،ص65.

[6] ابن حوقل، مصدر سابق، ص316.

[7] لطفي دبيش، مرجع سابق، ص345.

[8] لطفي دبيش، مرجع سابق، ص362.

تتجمع المادة الجغرافية حول المدينة. ومنها ينطلق الجغرافي في استعراض أحوال البشر، ومعاشهم وصفة النبات والحيوان والصناعات والأسعار، لدرجة وصف العادات والهواء والتضاريس والتربة. وبذلك فإن تقديم الإقليم يتخذ من المدينة نواة لذلك[1].

ومن خلال عرض هذا الجدول الذي رصدنا فيه بعض المدن المغرب أوسطية من خلال صورة الأرض والجوانب التي ذكرت فيها. وما تضمنته من أوصاف ..

الجدول: 1

المدينة	الوصف	ملاحظات	المصدر
مرسى الخرز	مدينة ساحلية بها معدن المرجان	قريبة كبيرة عامرة ..نبيلة لتواجد المرجان بها وهي مقصد التجار	ابن حوقل: صورة الأرض، ص76.
بونة	"بها أسواق حسنة و تجارة مقصودة، فيها خصب ورخص موصوف،	مدينة مقتدرة تجمع بين المحاصيل الفلاحيةالمتنوعة ومعدن الحديد، ويمارس أهلها نشاطا رعويا كثيفا.	ابن حوقل: ص77.
مليانة	"لها أرحية على نهرها وسقي كثير من واديها".	مدينة أزلية، وهي إلى جانب مجموعة من المدن والقرى كالخضراء وسوق كران وريغة..، تقع على نهر الشف قد شكلت منطقة غنية بالمحاصيل الفلاحية واستقطبت حركة المسالك التجارية خاصة تلك التي تمر إلى فاس والمسيلة والقيروان.	
جزائر بني مزغنة	" فيها أسواق كثيرة،و بادية كبيرة، أكثر أموالهم المواشي	مدينة ساحلية تعمرها قبائل البربر التي تمارس أنشطة رعوية ونشاط	ابن حوقل ص78

[1] نفسه، ص152.

		تجاريا مع ما يحيط بها من مد وما يمتد منها من مسالك	
تنس	" مدينة فوق الصغيرة ..بها فواكه حسنة، من أكبر المدن التي يتعدى إليها الأندلسيون بمراكبهم .. ولسلطانها بها وجوه من الأموال كثيرة..".	جمعت هذه المدينة الساحلية بين عاملي التجارة وما يعكسه من أرباح وضرائب وجوابي. والبادية التي تضمها وتحوي الكثير من القبائل ذوي المواشي والأموال الممارسين لمختلف الأنشطة الفلاحية المنتجة.	ابن حوقل، ص78.
وهران	" ولمدينة وهران مرسى في غاية السلامة والصون، ..ولها بساتين وأجنة كثيرة فيها جميع الفواكه ..".	مدينة تمارس التجارة البحرية من خلال المراسي وتحوي على إنتاج زراعي وحيواني متنوع وهي منفتحة اقتصاديا على الأندلس. لم يغفل ابن حوقل من خلال وصفه لها ذكر بعض الظروف التاريخية كخضوعها في وقت ابن حوقل ليوسف بن زيري الصنهاجي	ابن حوقل، ص79
المسيلة	"لها واد يقال له واد سهر، لهم كروم وأجنة كثيرة تزيد على كفايتهم وغلاتهم القطن والحنطة والشعير وتكثر عندهم المواشي..".	مدينة محدثة، جمعت بين غزارة المياه والموقع الاستراتيجي والظروف السياسية زمن الفاطميين. فكانت المدينة المزودة لهم بما فيها من خيرات خاصة تلك التركيبة الاجتماعية البربرية التي عمرتها .	ابن حوقل، ص85.

أهم المدن والفعاليات الاقتصادية في المغرب الأوسط من خلال كتاب صورة الأرض.

من خلال الجدول يبدو أن ابن حوقل قد استوعب، التعريف الوظيفي للمدينة، على أساس أن الوظيفة قاعدة تعريف المدينة، حيث أن هذه الأخيرة نشأت وتطورت بفعل العامل الوظيفي[1]. فضلا عما أورده من وصف للجوانب الطبيعية معالم السطح، موارد مائية مؤشرات مناخية، محاصيل زراعية، ثروات فلاحية، سلع حرفية وموارد تجارية[2].

ذكر ابن حوقل جوانب تاريخية حال عرضه لوصف بعض المدن، كوصفه لأحوال مدينة تاهرت بقوله :" وقد تغيرت تاهرت عما كانت عليه..."[3].

لم يهمل ابن حوقل الإشارة إلى حجم المدينة في حديثه عنها كقوله عن بونة مدية مقتدرة أ ي متوسطة، وتنس مدينة فوق الصغيرة، بمعنى أنها أكبر حجما من المدن الصغيرة وأقل حجما من المدن المتوسطة[4]. كما ميز بين المحدثة والأزلية في إشارة زمانية لربط المكان بالزمان. وهو أيضا من الذين أسهموا في الكشف عن إضافات العرب المسلمين الحضارية. كمدينة المسيلة التي استحدثها الفاطميون. وأشار إلى أن تاهرت مدينتان إحداهما قديمة والأخرى محدثة.

ولم يهمل ابن حوقل الصحراء في مصنفه؛ كإقليم أو منطقة متباينة تضاريسيا ومناخيا عن بلاد المغرب[5]، وعرضت الحياة في هذه الأخيرة بكيفية منافية لحياة الحضر والعيش فيها، لقلة المياه والزراعة[6] .

وقد بدت صحراء المغرب الأوسط من خلال نصوص ابن حوقل بأنها:

فضاء واسع قليل المياه شديد الحر والبرد

نادرة وقليله العمران.

موطن للرعي وتربية المواشي...

[1] سعد عبود عمار، مرجع سابق،ص217.

[2] نفسه، ص218.

[3] ابن حوقل، مصدر سابق، ص92.

[4] سعد عبود عمار، مرجع سابق، ص223.

[5] ابن حوقل، مصدر سابق، ص84.

[6] لطفي دبيش، مرجع سابق، ص442.

".. ولهم الخيل النفيسة من البراذين والإبل والغنم.. فأما أسعارهم على تنائي مدنهم وديارهم فعلى غاية الرخص في الأطعمة والأغذية والأشربة واللحمان والأدهان، ولهم من جيد الفواكه والتور والأرطاب، وعندهم من الجمال الكثيرة في براريهم وصحاريهم التي لا تدانيها في الكثرة إبل العرب"[1].

كما لعبت المدن الواقعة في الصحراء، دور الوسيط التجاري. كما تحولت إلى مدن تجارية ؛على غرار وارجلان. وربطت بين الضفة الشمالية والجنوبية (بلاد السودان)، فقد عرفت حواضر الشمال "تجارة غير منقطعة منها إلى بلد السودان .."[2].

وشكلت القوافل التجارية المارة عبر المسالك والطرق التجارية الممتدة هناك موردا جبائيا؛ "فلم يزل المعتز يجتبي من القوافل الخارجة إلى بلد السودان وعشر وخراج.. على ما يباع بها ويشترى من إبل وغنم وبقر[3]. وقد ارتبط موضوع الرعي بالصحراء في كتب الجغرافية بشكل عام، وعند ابن حوقل بشكل خاص "وجميعهم يبيحون البلاد للمراعي والمزارع والمياه لورود الإبل والماشية"[4].

4. خاتمة:

النص الجغرافي هو نص ذو حمولة معرفية مثقلة تجمع بين الأدب والجغرافيا والتاريخ، وهو نص ثري ومنفتح على عدة معارف. جدير بالدراسة والتحليل.

ويمكن اعتبار جهود ابن حوقل إضافة إلى معاصريه في القرن الرابع الهجري أرقى ما وصلت إليه المعرفة الجغرافية عند العرب، من ناحية الرؤية والمنهج وصفة التأليف.

ويبقى مادة مصدرية لا غنى عنها في إثراء مباحث تاريخية عديدة اقتصادية واجتماعية عديدة. تثري إضافة إلى نصوص مصدرية أخرى العديد من الثغرات المعرفية، وتفسر على ضوئها الكثير من الأحداث التاريخية.

نقطة مهمة تجدر الإشارة إليها وهي الذاتي والموضوعي في الخطاب الجغرافي. فرغم حرص الجغرافي على تقصي الحقائق وتتبع الوقائع. فإن النصوص لا يمكنها التفلت من الذاتي، ولم تكن ببعيدة عن المواقف الشخصية والانطباعات الذاتية.

---

[1] ابن حوقل، مصدر سابق، ص95.

[2] نفسه، ص96.

[3] نفسه، ص97.

[4] مصدر سابق، ص100.

قائمة المراجع:

1. آدم متز، **الحضارة العربية الإسلامية في القرن الرابع** الهجري ، ترجمة، محمد عبد الهادي أبو ريد، دار الكتاب العربي، لبنان، ط5، ، مج 2 .
2.ابن حوقل، **صورة الأرض**، دار مكتبة الحياة، بيروت، (د.ت).
3.سعد عبود عمار، **ابن حوقل دراسة تاريخية في كتابه صورة الأرض**، دار تمور للنشر، 2016.
4.لطفي دبيش، **الإنسان والمكان في الثقافة العربية الإسلامية قراءة في نصوص الجغرافيين والرحاليين والمسالكيين العرب إلى القرن الخامس الهجري**، منشورات كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة تونس، .2011
.5 محمد حبيدة، **النص الإثنولوجي الوسيط الخبر الجغرافي أنموذجا، أشغال الملتقى الدولي السادس حول الكتابة التاريخية في العالم العربي الإسلامي**، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة تونس. 2010.
6.المقدسي، **أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم**، مكتبة مدبولي، القاهرة، 1991.